أناشيد الهروب

محمود حسن عزوز *

إلى الصديق مجدي رزق

الأمر جادّ، لكنّ الظنونَ ما زالت تساورني. لأجرِّبْ مرةً أخرى. حَشَدَ حواسَّه في أطراف أصابعه ومدّ يدَه على الطاولة يتسوّل الحُبَّ. مَسَحَ على زندها برقّة، ثم انزلق صوب راحتها يَنْشد دفئًا، ونبضًا كان يَنْقر بنانَه منذ قليل. سرعانَ ما استردّ يدَه، مأخوذًا بمراوحة سخيفة. كان الضوءُ خافتًا، والموسيقى تنساب بعذوبة كأنّها السِّحر. تُراها أصداءَ الحالة الغريبة التي ألمّت به في الفترة الأخيرة، فوَجدتْ مرتعًا في علاقةٍ فقدتْ براءتَها وحالت الظروفُ دون بلوغ مأربها؟ برقتْ عيناه من فرط الحيرة. «ما بكَ»؟ سألتْ بقلق، فأجاب «لا أدري،» ثم أردف بصوت واطئ كأنّه يحدِّث نفسه: «لا أشعر بارتياح هذه الأيام.» تذكّر العِطْر! كانت أولَ مِنْ ألمحتْ إليه واتّهمتْه بالإفراط فيه إلى درجةٍ تثير حفيظةَ الآخرين. تذكّر كيف أعياه ضبطُ قطراته حتى آلت إلى رشقةٍ واحدة لم تُرْضِ غرورَه فأقلع عنها. يدرك أنّ عطبًا قد نال من حاسة الشمّ، لكنّ فَقْدَ حاسّةٍ ليس كأخرى تراوح مكانَها، بل تتحدّاه أن يشيح عنها أو يسعى إلى درء خطرها، بينما الارتيابُ يستفحل داخله ويجعله في حالة يقظةٍ وتحفّزٍ دائميْن مثلما يفعل الآن: يمدّ يدَه ويعيد الكَرّة...

أَهمل عملَه ولزم البيتَ، تدفعه رغبةٌ في الاختلاء بحواسّه ورصدِ تغيّراتها المتلاحقة. تفاقمتْ تصرُّفاتُه المريبة تَفْضحه. يتردّد في زرد طعامه. يَلمس بإصبعه طرفَ لسانه. يرمي ببصره إلى بعيد، ومراتٍ يُرهف السمعَ ويصرخ في مَنْ حوله يرجوه التزامَ الصمت. كأنّ ثمة رسائلَ تترى إليه، في حين قال أصغرُ إخوته (وكان دائمَ التلصّص عليه) إنّه يذرع الغرفةَ جيئةً وذهابًا وهو يلوِّح بيديْه ويتحدَّث بصوت عالٍ...

مرةً كان المزاحُ ثقيلاً، والمراوغةُ خارقةً على غير العادة: أذاب قطعةَ السكّر في كوب الشاي، ثم أتبعها بأخرى، وثالثة، و.. عند الخامسة أدرك مذاقًا متوازنًا ما لبث أن تبدَّد، فانبرى مغتاظًا يضيف القطعةَ تلو الأخرى، حتى بلغتْ عشرًا، ثم احتسى رشفةً تنفّسَ بعدها الصُّعداءَ، وأسرع يدوّن في مفكّرة صغيرة لا تفارق جيبَه: «وحدَهما فاقعُ الحلاوة وشديدُ المرارة يحرّكان مذاقي.» غير أنّ الأمر جدُّ خطير، وإنْ داخلتْه خفّةٌ وطرافةٌ. وتجلّتْ خطورتُه مع وصول خطاب الفصل من العمل. استشاط أبوه غضبًا، وأخذ ينعته بألفاظٍ مقذعةٍ بالغةِ القسوة لم تتحمّلْها أعصابُه المرهقة، فانفجر في وجهه، وتناثرتْ كلماتُه كالرّذاذ تصيب كلَّ من حوله. ثم ضرب رأسَه بالجدار حتى أدماه. امتدّت أيادٍ تمسح على ظهره وتطيِّب خاطرَه... «إنّي اجتاز محنةً تعصف بكياني،» يقول كالمعتذر، فتُحملق فيه عيونٌ غيرُ مصدِّقة.

حدجه الطبيبُ من وراء نظّارةٍ سميكةِ الإطار بنظراتٍ ثاقبةٍ فاقمتْ من ارتباكه وحركاتِ أصابعه. ثمة حادثٌ قديم: كان ما يزال تلميذًا صغيرًا يمارس التمرينَ في مختبر المدرسة حين باغتته مادةٌ نفّاذةٌ الرائحة وأصابته في الصميم. شعاعٌ ثاقبٌ اخترق أنفَه ورأسَه، ثم أرداه أرضًا. «شعرتُ كأنّ حاستي اغتُصِبتْ وأنّ مسارًا برأسي لم يعد آمنًا.» شعورٌ مماثِلٌ آخر يداهمه منذ وقت قريب، كأنّ المادّة اللعينة لم تتبخّرْ بعد. وأبرزَ علبةَ الدواء من جيبه مضيفًا: «حبّة واحدة تَحُول بيني والسقوط.» تصيبه النوبةُ حين يهمّ بقراءة تقارير مكدّسة على مكتبه يتحتّم عليه مهرُها بتوقيعه. «بالضبط، رسائلُ الوكالات المتخصّصة تلاحق أخبارَ الموت والدمار في أرجاء المعمورة.» قاطعه الدكتور بقوله:

ـ ربما ما تعانيه يَرْجع إلى السّترَسْ (Stress).

ـ تَقْصد الإرهاق، حضرتك. فكّرتُ في ذلك، ثم اعتكفتُ بالمنزل. هل تدري ما جرى لي؟

ـ أَكملْ. أسمعكَ جيّدًا (قال ذلك وهو يحشو غليونَه بالتبغ ثم يشعلُه).

---

* ـ كاتب من مصر.

ـ تطوّرت الأعراضُ وتسارعتْ إلى درجةٍ مخيفة. حتى حواسّي الأخرى لم أَسْلم لحظةً واحدةً من مراوغتها.

ـ أمرٌ غريب، لكنْ ليس بمرض.

ـ كيف يا دكتور، والفحوصات أكّدت فقدي إحدى حواسّي؟ وقد قرأتُ أنّ...

قاطعه بحسم:

ـ لا تقرأْ!

ثم أردف يستدرك أماراتِ الدهشة التي عَلَتْ أساريرَه:

ـ أقصدُ أنّ بعض الكتابات تَصْدمنا وتخيِّب آمالَنا.

خرج متجهِّمَ الوجه يَزْفر بمرارة وحسرة، وكلُّ ما ظَفرَ به نصيحةٌ بأن ينأى عن مثيرات القلق ويراجعَ طبيبًا آخرَ أكثرَ اختصاصًا بحالته. يَنْشد الخلاصَ من عالمٍ قاسٍ يُطْبق عليه كلَّ يوم، فيَكْبر العنادُ برأسه، وتتشبّث روحُه بالحياة. أما الآثار التي أعقبتْ فترةَ الاعتكاف في المنزل فقد راوحتْ بين وهمٍ وحقيقةٍ، باستثناءِ ما رَسَخَ بقوة، وهو أنّ حواسَّه «بوّاباتٌ» مشرعةٌ بقدْرٍ وحساب، تَحْفظ أمنَه واستقرارَه، وتتقارب فيما بينها عبر أسوار مدينة الجسد. في سباقه المحموم مع الزمن، وسَمَتْ حركاتِه سرعةٌ واندفاعٌ غريبان، فهو يريد أن يُنْجز في آنٍ أشياءَ كثيرةً تفوق قدرتَه: كأنْ يرتدي ثيابَه، ويحلقَ ذقنَه، ويلمِّع حذاءه في وقتٍ واحد (وهذه الأخيرة عادةٌ جديدةٌ رافقتْ ما اعتراه من تطوّرات)؛ أو يحاول، فيما هو منكبٌّ على طعامه، أن يمدّ يدَه إلى كلّ الأطباق مرةً واحدةً، وحين يثير انتباهَه أحدُهم يتوقّف برهةً، ثم يستأنف رويدًا رويدًا، وسرعان ما تأخذه الهرولةُ ويصيح كالمستجير: «لا أقدر أن أسيطر على حالي.» متلهِّف، متلفِّف لكلِّ ما يصيب جسدَه وتفيض به حواسُّه، عبر ردودٍ فجّةٍ ومباغتة. حتى تكرّستْ حنكةٌ ودرايةٌ أسبغتا عليه نعمةَ التركيز، في حين داخلتِ الزمنَ رخاوةٌ أضرّت بإيقاعه الصارم الرتيب. لم يعد الزمنُ هو الزمن، وانبلج العمرُ لحظاتٍ مقدّساتٍ (تعبيرٌ وَرَدَ ذكرُه في المفكّرة) مفعمةً بعشق الحياة والرغبة الخفيّة في فتْق أسرارها. قد ينجح يومًا في ترويض حواسّه وتحريرها من ربقة الجسد، وعندها يقيم عالمَ الحبّ والشعر الذي طالما حلم به.

تنتابه نشوةٌ عارمةٌ وهو يختبر مسحًا مرهفًا يفرّقُ بن أملسيْن. ومراتٍ يؤْخذ بارتدادةٍ يروِّعه أمدُها، ويَفْرط منه توتُّرُهُ وانفعالُه.

«هل أمزح معكَ»؟ يسائل نفسَه وعيناه مشدودتان إلى لهب الشمعةِ يَلْتهم طرفَ إصبعه من غير أن تَطْرفا أو يشعرَ بألم... لكنّ أشياءَ أخرى راحت تتبارى في استنزاف يقظته.

تَقْطر اللحظات وتتوّجها سدراتُ منتهى ينسى المرءُ في حضرتها ما عداها. تخْرج الكلمةُ من فيهِ، فيترحّم عليها عاجزًا عن استردادها. أو. أو.. هذا المفتاح. يسبِّب نرفزتَه وتوتّره... «أين أضعتُه يا ربي؟».. يبحث عنه في كلّ مكان، حتى يفاجَأَ بوجوده في قبضة يده... أو أنّه كلّما تأهّب للخروج من المنزل فكأنّه في طريقه إلى لقاء فتاته ذاتِ العينين اللمّاحتين والتعليقاتِ المحرجةِ الساخرة. يُسرف في العناية بهندامه أمام مرآة كبيرة، ثم يتحسّس وجهَه براحتيْه، ويمسح عن بذّته غبارًا يظلّ طول الوقت يشتبه في وجوده. حتى كان يومٌ أفاق على ماضٍ يتسرّب منه. أدرك هذه الحقيقةَ فيما هو مستلقٍ على تختٍ مريحٍ يحاول بعنتٍ اقتفاءَ أثرٍ عالقٍ بدهاليز الذاكرة، الأمرُ الذي أثار حنقَ الطبيب النفسي الذي قال مستنكرًا بعد جلساتٍ عدة وهو يلوِّح بأحد أشرطة التسجيل:

ـ هل هذا أنت؟! مجرّدُ شريطٍ وحيدٍ تَغْلب عليه قصائدُ من الشعر القديم!

❖ ❖ ❖

خطواتُه مضطربة. متسارعة. تساوره رغبةٌ في الصياح وخلطِ الأوراق. فجأةً دوّى أزيرُ الرصاص، وتصاعدتْ إلى عنان السماء حلقاتُ الدخان الأبيض، تَصْحبها هتافاتُ المحتشدين بالميدان. بَسَط كفّه على منخاره وحثّ خطاه مبتعدًا. وإذ انعطَفَ نحو زقاقٍ ضيّق، ارتطم بشابٍّ فارعِ الطول. تبادلا النظرَ برهةً، ثم صاح الشابُّ فاتحًا ذراعيْه:

ـ الأستاذ. يا لها من مصادفة!

استسلم إلى حضنه دون أن يحرّك ساكنًا.

ـ أنا رائد... تلميذُكَ رائد... رائد إبراهيم الدسوقي.

يتكلّم بحماسٍ تَقْطعه أنفاسُه اللاهثة. في العشرينات من العمر، ذو هيكلٍ نحيلٍ، وأنفٍ كبيرٍ يستأثر بالنظر.

ـ ثانوية الفاروق.. فصل ثالثة أول. المسطرة، والضرب على أطراف الأصابع في عزّ البرد! ألم تتذكّرني بعد؟!

ـ يَصْعب عليَّ تذكُّرُ ما مضى.

قالها بمرارة، وقد فاضت نبراتُه بالصدق. لكنّه لا يُنْكر أنّ لحظةً نعتِهث بـ «الأستاذ» برقتْ كوميضِ أنار ذاكرتَه وخلّف دُوارًا. يرغب في أن يطوي تلك الفترةَ من حياته: فترةَ التدريس التي أَعقبتْ تخرُّجه من الجامعة، والمديرَ المتربّصَ به الدائمَ الشجارِ معه...

قال الشابّ وهو يقبض بيده على أنفه الضخم:

ـ ألا يذكِّرُكَ هذا برائد الدسوقي؟

ـ هل تجرؤ على المزاح معي؟! سأل بغضب قاطبًا جبينَه. كانت ثمة رائحةٌ تسرّبتْ إليه، وَخَيَّشَ بيافوخه شذى الذكريات، فثارت فيه رغبةُ القيء لجوجةً وقويةً. أولاه ظهرَه، وازدرد حبةَ دواء. شعر الشابُّ بالحرج، وبادر بالقول وقد حطّ يدَه على رأسه:

ـ العفو يا أستاذ. مقامك محفوظ على راسي!

ومضى في سبيله وهو يردِّد:

ـ أرجو المعذرة. أرجو المعذرة!

دلف إلى مكان تتضوّع أركانُه بطمأنينةٍ وصفاء. تمدَّدَ على الكرسي ذي البسطة الطويلة، وراح يجترّ ما جرى. لكنّ الانزعاج ظلّ يقبض على أساريره، والطبيبُ يُنصت إليه باهتمام قبل أن يَشْرع في مجاراته. مبرِّراتٌ اعتادها، وكلامٌ حلوٌ لا يخلو من الرياءِ والمسحِ برفقٍ على مشاعر عميقة باتت بالغةَ التحسّس. هذه المرة لم ينطلِ ذلك عليه، وصاح منرفزًا:

ـ أيّ أدرينالين يفعل بي هذا يا دكتور!

بسط الطبيبُ يديه وقبض أطرافَ أصابعه من غير تشنّج، ثم راح يحرّكها صعودًا ونزولاً. نظر إليه بغيظٍ مكتوم. بعد جهد أفلح في أن يُثقِّل جسدَه ثم هوى به رويدًا. وكانت نغماتٌ ناعمةٌ تنساب وتُوغِلُ في الخفوت، لتلقَى مبتغاها في حواسَّ مشرئبّة.

ـ أنتَ لم تحدِّثني أبدًا عن بصرك.

قال الدكتور ذلك، نازعًا عن سؤاله، كالعادة، صيغةَ الأمر الجافّة.

ـ بصري؟ دعك من بصري! (يتكلّم بثقة كبيرة) إنّه العضوُ الوحيد الذي لم يُصِبْه اضطراب. بل إنّه بقدْرِ ما تَخْذلني حوّاسي الأخرى، يزداد قوةً وحدّةً. بصري حديد. وكأنّ الأشياء تُقرَّبُ إليّ، فتَبين ملامحُها وخطوطُها الدقيقة... حتى إنّي أستطيع أن ألمسَ خشونة الشيء ونعومته ودفئه وبرودتَه، بل ثقلَه وخفّته، إلى أن تَدْمع عيناي، فتصير نظراتي لزجةً ومائعة.

وانتفض مضطجعًا في جلسته كأنّه تذكّر شيئًا، ثم قال بانفعال:

ـ يا دكتووور. ارحمني. وقلْ دون مواربة: هل مرضي خطير؟

ـ بالتأكيد لستَ مريضًا. قلتُ لك ذلك أكثرَ من مرة. والجلساتُ التي أجريناها أثبتتْ سلامتَكَ العقلية.

ـ لكنْ...

ـ أعرف. أعرف. فقدتَ حاسةَ الشمّ إثر حادث قديم. لكنّك لا تَقْدر أن تَجزم بخسارةِ أيٍّ من حواسك الأخرى. حاولْ أن تنسى يا رجل. أناس كثيرون فقدوا إحدى حواسّهم، وربما أكثرَ من ذلك، لكنّهم يمارسون حياتَهم من غير تأثّرٍ أو تغيير.

وقال له مودّعًا، وقد استقرّت يداه على كتفيه في حنانٍ أبويّ:

ـ خذها منّي كلمة: عَجِّلْ بالزواج، واشغلْ بالكَ بأمورٍ مفرحة.

أين وَلّى مهدُ الأحلام، وألقُ الذكريات، وميعةُ سنوات الصِبا؟! تُرى أتتخلّى فتاتُه عن طموحاتها وتَقْنع بعشٍّ صغيرٍ هو كلُّ ما يملك؟! وماذا عن مأزقٍ يتردّى فيه ويَنْزع عنه أسبابَ اليفاعة والقوة؟ لقد فقد في الأيام المنصرمة آخرَ ما يربطه بصخب الحياة. تراجعتِ انتعاظةُ الصباح المُتْرَعَة بدفء الفراش، حتى آل عضوُه إلى حجم الخنْصر راقدًا فوق «أليطةٍ»[1] رخوة، واقتصرتْ تصرُّفاته على ردود أفعال حذرة ومتردّدة.

أمّا ذاكرتُه فلم تَسْلم من عبثٍ أفرغَها من محتواها.. إلاّ تلك الأشعارَ ودقائقَ مشحونةً بالجدّة والإثارة رافقتْ آخرَ لقاءٍ سبق فترةَ الاعتكاف؛ فهو يجترّها عند كلّ سانحةٍ، واجدًا فيها «إرهاصًا يؤرّخ لتاكلٍ واحدةٍ من حواسّه» (من المفكّرة).

كان الضوء ما يزال هزيلاً، والموسيقى تنساب بعذوبة ودفءٍ كدفءِ حضنٍ كبير. وكان صدى سؤالها يتردّد بغلظةٍ وسماجةٍ تزيدان في تمزّقه حيال ما يعانيه، فأنشد يقول:

يســائلني أنْ كـيف حـالي بعـدَه	على كلّ شيء سـاءه الدهرُ حـاليـا؟
وحـالي أنّي سـوف أُهدي له الخَسـا	وأمشي له المشيَ الذي قد مشى ليا![2]

وامتدّت يداه تتحسّسان وجهَها كضرير. ثم انزلق حتى احتوت عنقَها راحتاه. أرهف أذنيْه، وضيّق حدقتيْه. ومرةً أخرى راح يَمْسح برقّة، ثم يَضْغط بحزم، ليزدادَ حيرةً وتسمُّرًا. أين رَجْعُ النشوة العميقة؟! وأين نَبْضُ شريان القلب؟! يا لَلْجِيدِ الدُّملوك... الأبرد. يضغط، ويضغط، حتى تعالت صرختُها، فأفلتَها وهو يضحك في بلاهة.

«حسبي عيناي الخارقتان تتحفّزان لالتقاط كلِّ مباغتٍ ينال من حواسّي.» يَعْمل على مرانهما ويخصّهما بحصةٍ أكبر ممّا تحظى به الأُخريات. وكان أنْ لجأ إلى طريقةٍ تكمن فيها طرافةٌ يسبر بها أغوارَ محدّثه: يتوقّف مليّاً حيال إطار الوجه ثم يَمْسح، بترتيبٍ حاذقٍ، الجبينَ، الذقنَ، حلمتَي الأذن، استدارةَ العينين، عظامَ الوجنتين، الأنفَ، كَمَّ اللحم المتراكم، إلخ... لم يظفرْ قطّ بمراده، وبدت رغبتُه في التداني إلى محدِّثه تُفاقم من غربته وإنكاره. «حسبي عيناي الخارقتان»: كانت التغريدةَ الأخيرةَ التي تسبق انهيارَه. توالت الخروقُ بكثافةٍ تبدِّد جهدَه، في حين تحوّلَ رأسُه إلى أرض مستباحة يَضْرب فيها الخراب. تجرّدت الأشياءُ من تناقضٍ يباعد بينها، ثم خلصتْ إلى طبيعتها: طعمُها المميَّزُ هو اللاطعم. الحلوُ كالمرّ. والقريبُ كالبعيد. واللذةُ مثل الألم. حتى أذناه لم تَسْلما من الحراك وطفقتا تضجّان

---

١ ـ أليطة: دارجة عامية تعني ارتخاءً وتضخّمًا في حجم الخصيْتين من غير مرض.

٢ ـ للشاعر الصعلوك السليك بن عمرو، الشهير بالسليك بن السلكة، وقد توفّي سنة ٦٠٥ ميلادية.

بأصوات تدعوه إلى الذهاب إلى عالم آخر. قالت أمُّه إنّها «النَّداهة» وألمحتْ إلى آخرين ذهبوا في إثرها إلى غير رجعة. منذ ذلك الحين يلوذ متربّصًا بمطارحَ بعيْنها. يكابد مرارةَ الانتظار والوحشة، والتوجُّس من نظرةٍ أو لمسةٍ أو رشفةٍ أو شمّةٍ أو... صوتٍ يَطْرق سمعَه ورأسَه مزاحمًا قرعَ الطبول الذي لا يهدأ.

وفي غمرة انهياره كَتَبَ إلى فتاته خطابًا مطوّلاً خَتَمَه بقوله:

«... حسبُكِ الذكرى، وكلمةُ وداعٍ هي كلُّ ما أقدر عليه. إنْ عدتِ فلن تجدي غيرَ شبحٍ، وستعانقين الفراغ.»

❖ ❖ ❖

تقلَّصتْ رغباتُه من حيث لا يشعر وكادت أن تنمحي، في وقت فاق فيه تعلُّقُه بحواسّه كلَّ تصوّر: كان تعلُّقُه بها أكبرَ من احتفاء بجوهر الحياة، ومن ولعٍ بغموض يكتنفها، ومن أمنيةٍ جاد بها واحدٌ من تجلّياته. بيْد أنّه حين تتأكّله كآبةٌ يرى ذلك التعلُّقَ مجردَ حلاوةِ روحٍ وقد خلا العالمُ إلاّ من وجهِ ربٍّ كريمٍ و«آياتٍ مُحْكَمات»[1] ودربٍ وحيدٍ تَعْبره الأرواحُ المعذَّبةُ لتتلقَّفها رحمةُ السماء.

أَرسل لحيتَه وتدثّر بالبياض. سروالٌ طويلٌ، يعلوه جلبابٌ يستر الركبتين؛ وطاقيةٌ صغيرةٌ يحشرها في رأسه، آثر أن يَستبدلها بلفحةٍ كبيرةٍ تنسدل أطرافُها على كتفيه. في طريقه إلى المسجد القريب من البيت يَخْطر بوقار وهيبة وانحناء، لولا تلك الهرولة التي تخذله ويَعْجز عن ردعها. حين تدلّت اللحيةُ على صدره وسطعت «الزبيبةُ» بجبينه، لاذ بالمسجد لا يبرحه. يتقرّبُ زلفى، بورعٍ وخشوع، تلاحقه وسوسةٌ غريبةٌ، يقابلها بالإكثار من الصلاة. وبين السجود والركوع يَلْهج بترديد لفظ الجلالة، وتنهمر دموعُه دون انقطاع حتى يَعْلق لسانُه بسقف حلقه، وتُخدَّر أوداجُه، فيلج نومًا عميقًا. ذاتَ قيلولةٍ خَرَقَه منامٌ. تراءت حواسُّه وقد امتزج بعضُها ببعض عبر شعاعٍ من نورٍ حوّله إلى كائنٍ أثيري و«أميبيٍّ» الملامح والأبعاد. وفي عجلةٍ من أمره سما إلى عالمٍ أكثرَ رحابة ورقيّاً، تفرفح فيه الألوانُ، وتتداعى الأرواحُ من خلال حركاتٍ وإيماءاتٍ سريعةٍ إلا أنّها بالغةُ الرقّة واللطف.

أفاق على ضجيجٍ بلغ ذروتَه. فرك عينيه ثم أمعن النظر: كان ضابطٌ شابٌّ تتلألأ النجومُ على كتفيه يقف عند رأسه، يأمره بالنهوض، فيطيع من دون تردّد، ويأمره ثانيةً فيبسط يديْن مرتجفتين إلى الأصفاد التي أَطبقتْ على رسغيْه، ثم خرج وسط ثُلّةٍ من الجنود صوب سيارة «البوكس» التي كانت تمتلئ برفاقه من ذوي اللِّحى.

❖ ❖ ❖

أمور غريبة جرت منذ وطئتْ قدماه هذا المكانَ الموحشَ النائي، حتى إنّ الشمس لا تصل إليه. يتلقّى «طريحتَي» الصباح والمساء باستسلام وبشاشة يثيران ذهولَ جلاّديه. استردّ نضارةَ وجهه وصفاءَ تفكيره، وانحسر الضجيجُ في رأسه والطنينُ في أذنيه. حتى يخنةُ السجن التي يعافها رفاقُ الزنزانة صار يلتهمها بشهيّةٍ وشراهةٍ رُدّتا إليه بقدرةٍ قادر. وفي وقتٍ متأخّرٍ من ليلٍ كئيب أسلمه الحارسُ إلى زنزانته. ألقى سلامًا فاترًا على رفاق مؤرّقين، فردّوا عليه بهمهماتٍ أكثرَ فتورًا. تناول طعامه وأوى إلى مطرحه. بَسَطَ البطّانيةَ الرثّة واستلقى عليها، وراح

١ ـ تأثُّرًا بالخطبة الشهيرة لقِسّ بن ساعدة، وقد ألقاها في سوق عكاظ من على جَمَل. ويُروى أنّ النبيّ (ص) قد رآه. ويقول مطلعُها: «أيُّها الناس اسمعوا وعُوا، إنّه مَنْ عاش مات، ومَنْ مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت... آيات محكمات...».

يَمْسح السقفَ بنظراتٍ شاردة. لا بدّ من أن خطرًا قد رُدّ عنه، وأنّ مثولَه أمام المحقّق منذ الصباح أيقظ فيه ما لم يكن في الحسبان. وانبرى يحاجج بحضورٍ لافتٍ وبديهةٍ مطواعة أفقدا المحقّقَ صوابَه، فبان سريعَ الغضب، قليلَ الحيلة، يَعْجز عن فرض خياراته وأسئلته. لا بدّ من أنّ أمورًا داخله قد تغيّرتْ، وأنّ آخرين تحمّلوا عبءَ الحفاظ على حياته: هنا مَنْ يطعمه، ومَنْ يؤمّن له نومًا هانئًا، ومَنْ يحرسه في طريقه إلى المرحاض ولدى عودته منه و... هنا أيضًا مَنْ يتفنّن في تعذيبه ويَحْمله على الكلام. أغمض عينيه فاشرأبّوا يُمْطرونه بنظراتٍ لا تخلو من حسد. وسرعان ما راح يغطّ في سباتٍ عميق، ويعلو شخيرُه، لا تزعجه رائحةُ البول المقيتة تنبعث من دلو قريبة، ولا تؤثّر فيه حشراتٌ بلا حصر تَزْحف نحوه وتَمْرح على جسده وتنغل في جراحٍ لم تندملْ بعد. يا له من مكانٍ يأنس إليه رغم أنف الآخرين. يَمْتح من مخزون الذاكرة، فينبسط شريطُ حياته، ويَبْرز يقينٌ: وهو أنّ عالمنا الحقيقي ليس ما نراه، بل ما نَرْغب في رؤيته.

مرةً أخرى أغمض عينيه وارتاح مثلَ طائرٍ حطّ في إعياءٍ وتعب.

❖ ❖ ❖

«الوضع دقيق والخطر داهم ونحن نحميك من شرّ نفسك، شرطَ...» استهلّ المحقّقُ كلامَه ملمّحًا إلى هول المأزق الذي حُشر فيه، وإلى صفقةٍ تصطدم بعناده رغم أنّ غايتَها إطلاقُ سراحه. أصرّ على ما سبق أن ردّده، وأنكر بشدّةٍ علاقتَه بمن يُزْعمُ أنّهم أعضاءُ الجماعة المخرِّبة. «ليس أكثر من تقارب صلاةٍ في مسجد»: جملةٌ دأب على تكرارها. وضع أحدُ الحرّاس على المكتب ملفّاً ضخمًا بغلافٍ سميك، أبيض اللون، كُتب عليه بالحبر الشيني اسمُه وعنوانُ سكنه وتاريخُ ميلاده ثم عملُه: «مدرِّس لغة عربية سابق،» وتحته: «مصحِّح لغوي بمؤسسة (...) تمّ فصله في يوم.../.../...».

أشعل المحقّق سيجارته وراح يكرّ الصفحات من دون أن يُمعن النظرَ فيها. كلمات صغيرة منمنمة تفرّ متراجعةً فيَلْقم منها: «كافيتيريا رشدي.. ندوة القناة الأدبية... مقهى الشندويلي.» حملق مشدوهًا. تناول المحقّق مظروفًا دُسّ بين الصفحات. فضّه ثم أماله، فانزلقتْ محتوياتُه على الطاولة. كومةٌ من قُصاصات الصحف والمجلاّت حُفّت أطرافُها بعناية (جُلّها أشعارُ فترة المراهقة) تَبْرز وسطها المفكّرةُ، وهذه القُصاصات تنفرد بكبرها. بسط ثنيّاتها فظهر العنوانُ: «شعراءُ العصر الحديث.» تذكّر أطروحتَه عن الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، وكان قد نشر أجزاءً منها بإحدى الدوريّات.

ـ أنت شاعر إذن؟ سأل بقرف.

أجاب:

ـ كانت هوايةً أقلعتُ عنها مبكّرًا.

أشعل سيجارةً أخرى وقدّمها إليه، فتناولها في تردّد. ثم أمر له بكوب من الليمون الطازج، استمرأ مذاقَه، فجرعه مرةً واحدة. اشتكى من بشاعةِ ما يُمارَسُ عليه بانتظامٍ منذ اعتقاله، ومن قَبل أن يَمْثل للتحقيق. وبحركة مباغتة عرّى ظهرَه، وأراه إيّاه: كتلةً من اللحم شديدةَ الاحتقان، تتخلّلها جروحٌ تنزّ صديدًا، وآثار جلدٍ بارزة. انتفض المحقّق واقفًا وقد اربدّتْ سحنتُه. ضَرب بقبضته طاولة المكتب وصاح:

ـ أنت هنا مدانٌ حتى تَثْبت براءتُك.

واستطرد مخفّفًا من نبراته:

ـ ثم إنّك لا تصرخ متوجّعًا، أو تئنّ، أو حتى تزوم.[1] ألا تَشْعر بالألم؟

---

١ ـ عاميّة بمعنى: يتألّم بصوت مكتوم.

ردّ بثبات:

ـ ليس بعد أن تهدّمتْ أسوارُ المدينة واقُتلعتْ بوّاباتُها وعاث الملوكُ فيها فسادًا.

تبادل كاتبُ التحقيق النظرَ مع آمره الذي أومأ إليه بأن يدوِّن كلَّ كلمة يتفوّه بها.

«الموت غرقًا. أو حرقًا.. أو..»

ولم يكملْ. نحّى الوقة جانبًا وقال:

ـ لن أناقش آراءك التي أعرفها جيّدًا. لكنْ لماذا في هذه الجريدة؟

ـ فيها صفحةٌ تَنْشر كلَّ الآراء.

ـ أمْ لأنّك تنتمي إلى...

قاطعه وهو يغالب انفعالَه:

ـ لا. لا. أرجوك. أنتمي إلى حواسّي. أقصد إلى نفسي... دون سواها.

يَذْرع المحقّقُ الغرفةَ بخطوات بطيئة متلصّصة. ويقرأ باهتمام من المفكّرة: «فقاعاتُ الصابون المتطايرة تذكّرني بحواسّي. أطمئنّ على ملامحي فقط حين أطالع المرآةَ. يراودني شعورٌ بأنّ خمسة أرواح تتنازعني.»

مال عليه حتى قاربتْ أنفاسُه وجهَه، وقال بلهجة الواثق:

ـ شفرة. أليس كذلك؟

ردّ ببرود:

ـ مجرّد يوميات.

تابع المحقّق: «محطات المحروقات. شوادر السمك. الأسواق التي تفوح منها رائحةُ التوابل والبهارات. شراب الخرّوب. الأسموكن. الكتّان. الحدائق الفوّاحة العبير...» صاح مزمجرًا:

ـ يوميّات هذه؟ أمْ أماكنُ تُعدّها جماعتُك للتفجير؟

ثم قبض ذقنَه بيده وحدّق في عينيه قائلاً:

ـ مَنْ أميرُك؟

ـ لا أميرَ لي.

ـ مَنْ هو الرجل الذي يَأْمرك؟

ـ لا أحد.

ـ إذن، قدوتُك؟ رَجُلُكَ التي تتمثّل به وتحذو دربَه؟

كوّر قبضتَه ولوّح بها في وجهه ثم استطرد:

ـ دعني أخبركَ شيئًا. كاد صبري ينفد. أجبْ وإلاّ...

ـ آخاب... الكابتن آخاب.

ـ أين يقيم؟

ـ في الموبي دِك.

ـ تقصد الموڤنپك.

أجابَ، وابتسامتُه تزداد اتّساعًا:

ـ لا. أقصد الروايةَ التي تحمل العنوانَ ذاتَه.

ـ تَسْخر منّي يا بن الـ...

وراح يَضْرب وجهَه بحافة المكتب، حتى هشّم أنفَه، ثم أمر الحرّاسَ أن يأخذوه إلى غرفة «النقاهة.» انبرى حارسان عملاقان يسحبانه على الأرض من ساقيه المنفرجتين، وكان يرنو إليهما وشبحُ الابتسامة لم يَغربْ عن وجهه، بينما سرسوبُ الدم القاني يَغْمر فمه وشفتيْه. ثم راق له الشّعر فأنشد يقول:

خُـذاني فَــجُــرّاني بُبْــردي إليكُمــا فــقـد كنتُ قـبلَ اليـوم صـعـبًـا قِـياديَا

وقـد كنتُ عَطّافًـا إذا الخـيلُ أَدْبرتْ سريعًا لدى الهَيْجا إلى مَنْ دَعانيا.[١]

❖ ❖ ❖

بدت لحظةُ خروجه من السجن كيومِ ولدتْه أمُّه، يَخْطر في ثيابٍ أخرى، حليقَ الرأس واللحية. وما إنْ وطئتْ قدماه الطريقَ حتى باغتته شمسٌ ساطعة، فانكفأ على حاله يتحسّس أعضاءه الواحدَ تلو الآخر. كان ألمٌ نابضٌ يدقّ مؤخّرة رأسه، ورائحةٌ غامضة تتسرّب إليه. شعر، بها هذه المرة، أوهنَ من أن تكون شعاعًا، وأشدَّ تماسكًا من أن تكون خيطًا أو بصيصًا. تكسّرتْ ذرّاتُه على سقف الجمجمة، ثم تناثرتْ موسّعةً من دوائر انتشارها في أرجاء الباحة الهشّة، لتُخلِّف دُوارًا. أسرع يتحسّس علبةَ الدواء في جيبه، إلا أنّ ذلك كان إيذانًا بقرع الطبول...

مرّ أمام المسجد. تدلدل[٢] في مشيه، واغرورقتْ عيناه بالدموع، حتى بلغ البيت. لكنْ قبل أن يلج البابَ تسمّر واقفًا. شَخَصَ ببصره إلى بعيد، ثم شرع سبّابته عن كثب. أمعن في تضييق حدقتيه حتى برزتْ حولهما خطوط دقيقة كأنّ أذنيه قد حلّتا بهما. كانت هتافاتٌ صاخبةٌ تقترب، فتختلج مشاعرُه وتنتشي بحماسٍ خفيّ، غيرَ مكترثٍ بأهل الحارة الذين تجمّعوا حول يباركون عودتَه، ولا بأفراد الأسرة وقد أحاطوا بسريره ويتلقّفون بشغفٍ ولهفةٍ ردودَه. كان ردّه الصريح المقتضب الذي لم يَحِدْ عنه ويهمس به بعد تنهّد عميق: «كانت أيام!» وإذا بشعور غريب يستفرد به ويستنفد طاقتَه وما زال حتى الساعة يلتبس أمرُه عليه: أنّ عورتَه مكشوفة، وعضوَه لا حول له يتدلّى نافرًا من فتحة بنطاله. يتردّد في مدّ يديه، ثم يمدّهما في تردّد، باسطًا كفّيه متقاربتيْن، وعينُه ترقب بحذرٍ نظراتِ الآخرين. حتى إذا ضاق ذرعًا، أرخاهما جانبًا، وسار في طريقه غيرَ مبالٍ، تعلو وجهَه ابتسامةٌ ساخرةٌ...

الإسماعيلية/بيروت

١ ـ للشاعر الصعلوك مالك بن الريب التميمي. اشتُهر في العصر الأموي بهذه القصيدة التي يرثي فيها نفسَه بعد أن لدغتْه أفعى، وقالها بينما كان يعاني سكرات الموت.

٢ ـ تدلدل: اضطرب واهتزّ.